ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

الشاب الظريف (حياته وشعره)

https://doi.org/10.5281/zenodo.18718066

وداد أبو عجيلة محمد مسعود .
محاضر مساعد ، قسم اللغة العربية / كلية اللغات العزيزية / جامعة الجفارة
wededbesoudd@gmail.com

الملخص.

يتناول هذا البحث دراسة شخصية الشاعر الشاب الظريف، الذي يعد أحد أبرز شعراء العصر المملوكي. ويرصد البحث ملامح حياته ويحلل أهم الجوانب الفنية في شعره. يتمثل الهدف الأساسي لهذه الدراسة في الكشف عن الخصائص المميزة لتجربته الشعرية، وبيان أثر البيئة التي عاش فيها على شعره. وقد تم تحقيق ذلك من خلال تتبع سيرته الذاتية، ودراسة السياق التاريخي لزمنه، وتحليل نماذج مختارة من قصائده.

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لفحص النصوص الشعرية. كما استحضرت المعطيات التاريخية والثقافية المرتبطة بالشاعر للكشف عن السمات الجمالية التي يتسم بها شعره، مثل عذوبة الألفاظ، وخفة الروح، وقدرته على الجمع بين الطرافة والجد. علاوة على ذلك، تستكشف الدراسة الصور الشعرية المنتقاة بعناية والتي تعكس حسه الإبداعي وصدقه العاطفي.

تخلص هذه الدراسة إلى أن الشاب الظريف قدم نموذجًا فريدًا يمزج بين النزعة الوجدانية والأسلوب السلس، مستفيدًا من ثقافته الواسعة واحتكاكه ببيئته. إن شعره لم يكن معزولًا عن عصره، بل كان مرآة صادقة لأحوال المجتمع وللتجربة الإنسانية في تلك الحقبة.

الكلمات المفتاحية: الشاب الظريف، الشعر، القضايا الأدبية ، الأسلوب الشعري، عهد المماليك.

Abstract

This research presents a study of the personality of the poet Al-Shab Al-Zarif, one of the most prominent poets of the Mamluk era. It tracks the features of his life and analyzes the most important artistic aspects of his poetry. The primary goal of this thesis is to reveal the distinctive characteristics of his poetic experience and to demonstrate the influence of his environment on his verse. This is achieved by tracing his biography, examining the historical context of the time he lived in, and analyzing selected examples of his poetry.

The study adopted the descriptive-analytical methodology for the examination of the poetic texts. It also incorporated the historical and cultural data associated with the poet to uncover the aesthetic qualities that characterize his poetry, such as the sweetness of his diction, his lighthearted spirit, and his ability to combine wit and seriousness. Furthermore, it explores the carefully selected poetic imagery that reflects his creative sensibility and emotional sincerity.

This study concludes that Al-Shab Al-Zarif presented a unique model that blends a sentimental tendency with a smooth style, benefiting from his broad culture and his engagement with his environment. His poetry

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

was not isolated from his era; rather, it served as an honest mirror of the society's conditions and the human experience during that period.

Keywords: Al-Zarif, His Poetry, His Life, Poetic Style, Poetic Imagery, Descriptive-Analytical Method.

مقدمة

تعد دراسة الشاعر وعصره من القضايا الأدبية والثقافية البالغة الأهمية، فهي تسلط الضوء على العلاقة الديناميكية بين الإبداع الأدبي وسياقاته الزمنية والاجتماعية.

إن الشاعر ليس مجرد كاتب معزول عن بيئته، بل هو نتاج عصره، يعكس بأدبه تطورات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدها مجتمعه وبعد استكشاف تلك البيئة، يمكننا فهم أعمق الأبعاد الفكرية والوجدانية لأعماله.

يهدف هذا البحث إلى تقديم تحليل لجوانب حياة الشعر في سياق العصر الذي عاش فيه، مع التركيز على الظروف السياسية التي أثرت على تجربته وأدبه، والظروف الاجتماعية التي شكلت تطلعاته وأفكاره، وكذلك الإطار الثقافي الذي غذى إبداعه وساهم في صياغة مواقفه، كما أن الربط بين الشاعر وعصره لا يسهم فقط في إثراء فهمنا لنصوصه، بل يكشف أيضًا عن القيم والمعايير الثقافية التي سادت مجتمعه وتركته إرثًا للأجيال اللاحقة.

وسنستعرض في هذا البحث نشأة الشاعر وظروف تعليمه، وعلاقته بشيوخه ومعاصريه، وتأثيره على محيطه وتأثره به، إضافة إلى استكشاف الأثر المتبادل بين أدبه والواقع السياسي والاجتماعي الذي عاشه، مما يكشف عن تكامل الفن والأدب مع معطيات الحياة الواقعية وتعميق الفهم للكيفية التي أصبح فيها الشاعر صوتًا فنيًا يعكس روح عصره.

إشكالية البحث

تتمثل إشكالية هذا البحث في محاولة الكشف عن الخصائص الفنية التي تميز شعر الشاب الظريف، واستجلاء ملامح بنائه الفني وصوره الشعرية وفق منظور المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال طرح سؤال وهو: إلى أي حد أسهم البناء الفني والصور الشعرية في تشكيل التجربة الشعرية لدى الشاب الظريف وإبراز فرادته داخل سياق الشعر في العصر المملوكي؟

أهمية البحث

تنطلق أهمية هذا البحث من كونه يتناول شخصية شعرية متميزة في العصر المملوكي، الذي لم يحظ بعناية نقدية كافية مقارنة بشعراء عصور أخرى، وتتجلى الأهمية في الكشف عن ملامح البنية الفنية في شعره، واستجلاء طبيعة الصور الشعرية التي شكلت تجربته الغزلية الرقيقة في شعره.

فرضية البحث

تنطلق هذه الدراسة من فرضية مفادها أن البنية الفنية عند الشاب الظريف تمثل محور تجربته الشعرية، وأنها أسهمت بشكل واضح في إبراز خصوصيته الأسلوبية داخل سياق الشعر المملوكي، وتبرز حساسيته الشعرية وتميزه عن غيره من شعراء عصره.

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

المطلب الأول : الشاعر وعصره

الحياة السياسية

عاش الشاب الظريف مرحلة من أعظم مراحل التاريخ الإسلامي عزًّا ومجدًا، وحفاظًا على الكرامة الوطنية، والصمود في وجه أعداء الإنسانية، وإن كانت هذه المرحلة من أكثر مراحل التاريخ اضطرابًا وقلقًا، فالتتار في الشرق والصليبيون في الشام وفي شمال البلاد والحروب بينهم وبين المسلمين لا تنقضي، وأطماعهم في أرض الإسلام لا تنتهي، وللعلماء مواقف مشرِّفة في الجهاد بأنفسهم وبمجهودهم في رفع الروح المعنوية للشعب وتوعيته وتوحيد صفوفه وراء المجاهدين.

دامت خلافة الحاكم بأمر الله[1] أربعين سنة، وفي عهده ولد الشاب الظريف وملك البلاد السلطان الظاهر بيبرس[2]، وكان ملك البلاد وقت وفاته السلطان المنصور[3] وقد أثرت هذه البيئة السياسية المضطربة تأثيرًا كبيرًا على الحياة الثقافية والاجتماعية، إذ لعبت دورًا في تشكيل وعي الشاعر وإبداعه.

الحياة الاجتماعية

يبدو أن العصر الذي ولد الشاب الظريف وعاش فيه كان عصرًا متطرِّفًا في أكثر جوانب الحياة الاجتماعية، "والوصف الذي يقارب الصدق، وينطبق على هذا العصر هو مجاوزة الحدِّ في كل أمر من الأمور، فلا نكاد نجد في التاريخ عصرًا لا يعرف القصر أو الاعتدال في أي شأن من شؤون الحياة كهذا العصر، فقد تجاوز الحد في الفوارق بين

---

(1) أبو العباس، أحمد بن أبي الحسن القبي بن أبي بكر بن علي، 625-701هـ/1228-1302م، (أمير المؤمنين وثاني الخلفاء العباسيين في مصر، كان شجاعًا فصيحًا يخطب بنفسه: ينظر الإعلام بوفيات الأعلام 2/479، والعبر 4/4، والوافي بالوفيات 6/317، وأعيان العصر وأعوان النصر، الصفدي خليل بن أبيك) ت 764هـ/1363م (تحقيق د. علي أبو زيد ود. نبيل أبو عمشة ود. محمد موعد، ود. محمود سالم محمد، ط1/ دار الفكر المعاصر، دمشق سنة 1997م، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي 1/208، البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير) ت 774هـ (ط 5/ مكتبة المعارف بيروت سنة 1983م، نسخة مصورة عن طبعة مصر سنة 1358هـ، 13/317، والجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، صارم الدين ابن دقماق، إبراهيم محمد بن أيدمر العلائي) ت 809هـ/1407م، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، ط1/ عالم الكتب، بيروت، سنة 1985م، 1/229، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي يوسف بن تغري بردي الأتابكي) ت 874هـ (تحقيق د. محمد محمد أمين، ود. نبيل محمد عبد العزيز وآخرون، مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، القاهرة سنة 1986م، 1/291 وتاريخ الخلفاء 551، والأعلام 1/111).

(2) أبو الفتح، بيبرس بن عبد الله ركن الدين العلائي البندقداري، الملك الظاهر 625-676هـ (كان واحدًا من الأمراء الدين حققوا النصر العظيم على المغول في موقعة عين جالوت سنة 658هـ وشارك في قتل قطز وأصبح سلطان مصر والشام، له دور بارز في جهاد الصليبيين: ينظر: الإعلام بوفيات الأعلام للذهبي 2/459، العبر في خبر من عبر للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان) ت 748هـ/1347م (تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ط1/ دار الكتب العلمية بيروت سنة 1985م، 3/331، الوافي بالوفيات 10/329، الأعلام 2/79).

(3) أبو الفتح، أبو المعالي، سيف الدين، قلاوون، الألفي العلائي الصالحي، 620-689هـ/1223-1290م، (مؤسس الدولة القلاوونية والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر ومن أكثر ملوكها آثارًا وفتوحات. هزم التتار على حمص، واستعاد من الصليبيين حصن المرقب ومدينة طرابلس وأدب ملك النوبة المسيحي، وغنم منه غنائم كثيرة، وفي سيرته كتب محيي الدين بن عبد الظاهر (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور). انظر: مسالك الأبصار 27/451، الأعلام والوفيات 2/469، والعبرة 3/37، والوافي بالوفيات 24/266، والبداية والنهاية 13/317، والجوهر الثمين 2/92، والأعلام 5/203).

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

الطبقات، وفي البناء والعمارة، وفي الزهد والمجون، وفي تطبيق الشريعة والقوانين، وفي نوازل الأيام وكوارث الطبيعة"[1].

وللعلماء آراء مختلفة في تصنيف طبقات المجتمع في العصر المملوكي[2] فمنهم من قسم المجتمع طبقتين أو ثلاثًا، ومنهم من جعلها سبعًا وربما دل هذا التقسيم على الوظائف الاجتماعية في الدولة أكثر من دلالته على ما يميز الطبقات بعضها من بعض في توزيع الثروة القومية وفي مستوى المعيشة وفي المستوى الثقافي أيضًا، أما عن دور المرأة في مجتمع المماليك والطبقة العليا في الدولة فقد كانت تتمتع بقسط وفير من الحرية والكرامة، وتؤدي دورًا بارزًا في الحياة السياسية فترفع وتخفض وتخرج للأسواق وتطلب العلم خاصة في مجال الشعر والأدب وتتمتع بقدر كاف من الاحترام[3].

وفي هذه البيئة الاجتماعية الغنية المتنوعة انعكست في أدب وشعر ذلك العصر وطبعت أعمالهم بروح الحياة التي عاشها في ظل تلك القضايا الاجتماعية.

الحياة الثقافية

الحركة الثقافية لا تسير في خط مواز دائمًا للحركة السياسية، فقد يكون الرقي السياسي مصدر الرقي الأدبي، وقد يكون الانحطاط السياسي مصدر الرقي الأدبي أيضًا، والقرن الرابع الهجري/الحادي عشر الميلادي خير دليل على أن الصلة بين الأدب والسياسة قد تكون صلة عكسية في كثير من الأحيان[4].

وفي عهد المماليك استمرت الحركة الثقافية قوية ونشطة بالرغم مما أصابها من تقليد في الفكر وتصنع في الأسلوب، ونقص في الابتكار، فالأدب مرآة حياة المجتمع والمعبر عن قضاياه وشواغله ولا بد من أن يصيبه من التغيُّر بقدر ما تصدع من بنيات الأمة في وقت غابت فيه السيادة العربية والقيادة الرشيدة، والحقيقة أن أمراء المماليك بذلوا جهودًا طيبة في سبيل رقي العلوم والنهوض بها، ولم يخل عصر واحد من الملوك والأمراء من تشييد مدرسة أو بناء جامع فيه مدرسة وخزانة كتب أو دار لتحفيظ الأيتام القرآن الكريم، أو دار يدرس فيها طلاب العلم الحديث الشريف، يضاف إلى كل تلك المراكز الندوات العلمية والمجالس الأدبية التي دأب العلماء على عقدها في بيوتهم وبساتينهم، فتجرى فيها المناظرات والمحاورات ويؤدي فيها الطلبة امتحانات الكفاءة[5].

تقدم صناعة الورق وظهور حرفة نسخ الكتب وبيعها، بنو المدارس المنيفة الهائلة المزخرفة بالذهب والإبريز، والمفروشة بالرخام المجزَّع البديع الصنعة[6]، وقد بلغ من اهتمام المماليك بالتعليم أنهم كانوا -عند الفراغ من إنشاء مدرسة- يقيمون احتفالًا كبيرًا بافتتاحها يحضره السلطان والأمراء والأعيان ويخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة من البنائين والمهندسين والمعلمين، ويعين لها موظفيها وكانت نفقات التعليم من الأوقاف وكان راتب كل طالب في الشهر عشرة دراهم، وراتب المعيد عشرين، وراتب كاتب الغيبة عشرين[7] وراتب المدرس

---

(1) الصفدي وآثاره في النقد والأدب، د. محمد عبد المجيد لاشين، ط1/ دار الآفاق العربية، القاهرة سنة 2005م، ص23.

(2) ينظر: ابن بناته المصري، للدكتور عمر موسى باشا، ط2/ دار المعارف، القاهرة، سنة 1972م، ص42.

(3) ينظر: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1972م، ص270.

(4) ينظر: من تاريخ الأدب العربي، د. طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1971م، 1/39.

(5) ينظر: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص20.

(6) ينظر المصدر السابق، ص3.

(7) كاتب الغيبة، موظف كان يحضر بكرة وعصرًا، يكتب اسم من يتغيب وينقص من راتبه ما يخص أيام الغياب، ينظر: أعيان العصر، 5/628.

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

ثمانين[1]، كما تقدمت في دولة المماليك فنون النحت والرسم والحفر والصناعات التقليدية والصناعات المعدنية والخزفية، ونهضت الصناعات الحربية نهضة عظيمة فقد صنعت كل أنواع الأسلحة ومعدات القتال[2].

ويذكر ابن خلدون[3] أن العلم والتعليم في العالم في العصور الوسطى إنما هما في القاهرة، وفي هذه البيئة الثقافية الراقية ولد الشاب الظريف ونشأ وتعلم وارتحل به أبوه بعد ذلك إلى دمشق العاصمة الثانية لدولة المماليك.

المطلب الثاني : التعريف بالشاعر

مولده ونشأته

لا أكاد أجد شيئًا ذا بال في كتب التاريخ الذي ترجمته عن مولده ونشأته غير أنه ولد في القاهرة سنة 661ه وليس الشاب الظريف بدعًا في ذلك بل هي السَّنة الغالبة في تاريخ الرجال، لكنني أجتهد في تلمس بعض المعلومات التي تعين على تصور تلك النشأة.

الصفدي[4] من أوثق المؤرخين الذين ترجموه، لا لقرب العهد به، ولا لأمانته في الرواية فحسب بل لأنه يروي شهادة شاهد عيان حضر مولد الشاب الظريف ونشأته، وخبر أحواله وأحوال أبيه وهو في الوقت ذاته من ذوي الدين والعدالة والاطلاع على كثير من أمور الناس وأحوالهم، شاهد العيان هذا هو أثير الدين أبو حيان[5].

قال الصفدي: "ولي عمالة الخزانة بدمشق"[6]، وقد ذكر القلقشندي[7] الشروط اللازمة لمن يشغل وظيفة عامة في الديوان في دولة المماليك، وهذه الشروط منها ما يختص بالثقافة العامة ومنها ما يختص بالمظهر والهيئة:

---

(1) ينظر: البداية والنهاية، 14/321.

(2) ينظر: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، د. أحمد مختار العبادي، ود. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1981م، ص320.

(3) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ولي الدين الحضرمي، 732–808هـ/1332–1405م، (مؤرخ، فيلسوف مؤسس علم الاجتماع وطبع له من كتبه المقدمة وتاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر وشفاء السائل لتهذيب المسائل)، ينظر: موسوعة المطبوعات العربية 129، وللأعلام 3/330، ومعجم المؤلفين 5/188.

(4) أبو الصفاء، خليل بن أيبك بن عبد الله صلاح الدين، الصفدي، 696–764هـ/1297–1363م، (مؤرخ، كاتب وشاعر وناقد طبع له من مؤلفاته: الوافي بالوفيات وغيث الأدب الذي انسجم وفض الختام عن التورية والاستخدام وصرف العين ولذة السمع...)، ينظر: الدرر الكامنة، 2/87، وموسوعة المطبوعات العربية 176، والأعلام 2/315، ومعجم المؤلفين 4/114.

(5) أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي الجيَّاني أثير الدين، 654–745هـ/1256–1344م، (من كبار العلماء في اللغة العربية والتفسير والحديث والقراءات والتراجم واللغات الأجنبية، مولده بالأندلس ووفاته بالقاهرة طبع له من ملفاته: البحر المحيط والتفسير الكبير، والنهر الماد من البحر وتحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، ديوان شعره: الإدراك للسان الأتراك...) ينظر: أعيان العصر 5/325، وتذكرة النبيه 3/68، والكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة للسان الدين بن الخطيب) ت 776هـ/1375م (تحقيق د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، بيروت، من دون تاريخ، ص81، المقفى الكبير 7/325، درة الحجال في أسماء الرجال لابن القاضي أحمد بن محمد المكناسي) ت 1025هـ/1616م، (تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ط1/ دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، 1970م، 2/122.

(6) الوافي بالوفيات، 3/130.

(7) أبو العباس، أحمد بن علي بن أحمد، شهاب الدين، القاهرة، 756–821هـ/1355–1418م، (مؤرخ، أديب نسبه من بيت علم وأدب له مؤلفات كثيرة طبع له منها: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب وصبح الأعشى في صناعة الإنشا وقلائد الجمان ومآثر الإنافة في معالم الخلافة وضوء

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

الشروط الثقافية: يشترط في الموظف أن يكون حافظًا للقرآن الكريم، وأن يكون قد قرأ الحديث والأصلين (أصول الفقه وأصول الدين) أو التوحيد، والفقه، وتعلم الكتابة والرسم ودرس الحكمة والهيئة، والحساب والمنطق، وبرع في الخط والأدب والتاريخ، وأتقن النحو والبلاغة واللغة، وهي الثقافة الضرورية للموظفين في عصره.

أما الشروط في المظهر والهيئة: أن يكون صبيح الوجه، فصيح الألفاظ، طليق اللسان أصيلًا في قومه، رفيعًا في حيِّه وقورًا حليمًا مؤْثِرًا للجد على الهزل، مهيب المجلس،... إلى غير ذلك[1].

ومما ذكره المعاصرون له ممن شاهدوه وعرفوه، وكتبوا عن أدبه وعن شعره وما وصفوه به في خلقته وهيئته، كل تلك الكتابات تشير إلى أن الشاب الظريف كان يتصف بكل ما ذكره القلقشندي من الصفات التي يجب أن تتوفر في من يلي وظيفة عمومية في الديوان المملوكي، ومما لا شك فيه أننا سنجد أقوالًا متناقضة بعضها يطعن في أخلاقه وسلوكه وبعضها يعلي من شأنه.

طلبه للعلم وشيوخه

أما عن دراسته وشيوخه، يتبين لقارئ ديوانه ثقافته الواسعة العريضة، فإلى جانب حفظه للقرآن الكريم نجده يلتزم بالمحسنات البديعية الكثيرة -كعادة المثقفين في عصره- مما يدل على معرفة كبيرة بمفردات اللغة وأساليبها، وما نجده في شعره من التورية بمصطلحات العلوم المتنوعة تدل على أنه امتلك ناصية فنون العلوم النقلية والعقلية المعروفة لجيله فلم يكن التخصص الدقيق معروفًا في ذلك الوقت، بل كان السائد عندهم أن الثقافة أن تأخذ من كل علم بطرف، فنطالع في ديوانه كثيرًا من مصطلحات المناطقة والفقهاء والأصوليين والبلاغيين والعروضيين والمتصوفة وغيرهم، من أمثلة ذلك قوله[2]:

يبـــــدي لنــــا مـــــن حســــنه وحديثــــه	أبهـــــى وأبهــــج مجلــــس ومجـــــالس
وغــــدا بــــديعًا فـــي الجمـــال بمـــا يبـــدي	مــــن حســـــنه المتطــــابق المتجــــانس

في البيتين تورية ببعض مصطلحات علم البديع: التطابق والتجانس.

- **ومعجم شيوخه نعرف منهم:**

– **عفيف الدين التلمساني**[3] وهو والد الشاعر وأقرب الناس إليه رحمًا وألصقهم به نسبًا، وأكثرهم به معرفة وتشير مصادر ترجمته إلى أنه كتب عنه بعض الطلبة، ومن المتوقع أن يقرأ عليه ابنه وقد أشار إلى ذلك في قوله[4]:

الصبح المسفر...)، ينظر تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ق 6/552، موسوعة المطبوعات العربية ص235، والأعلام1/177، ومعجم المؤلفين، 1/317.

[1] ينظر: صبح الأعشى، 1/104.

[2] ينظر: الديوان، ص131.

[3] أبو الربيع، سليمان بن علي بن عبد الله الكومي، عفيف الدين التلمساني، 690-710هـ/1213-1291م، (شاعر أديب متصوف معروف بالجلالة والإكرام للناس من مؤلفاته ديوان للشعر وشرح أسماء الله الحسنى، وشرح مواقف النفري، وشرح فصوص الحكم، وكتاب في العروض، وشرح منازل السائرين، ينظر: كتاب وفيات الأعيان، لابن الصقاعي فضل الله بن فخر) ت 726هـ/1326م (تحقيق جاكلين سوبلة، دمشق، سنة 1974، ص82، الإعلام بوفيات الأعلام 2/470، العبر 3/372، الوافي بالوفيات 15/408، الكنى والألقاب 2/122، الأعلام 3/130، معجم المؤلفين 4/270).

[4] ينظر: الديوان، ص67.

مجلة جامعة الجفارة للعلوم الإنسانية والتطبيقية / العدد السابع / يونيو 2025 م

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

فيـــه الــــذي كشـــف العمـــى عـــن نـــاظري	وجــــلا شــــموس الحـــق فــــي مرآتـــي

فعن علاقة الشاب الظريف بأبيه: من شعر الشاب الظريف في أبيه، ومن شعر العفيف في ابنه نجد عاطفة قوية قائمة على الإعجاب والمحبة، ويرى كل منهما في الآخر النموذج الأكمل للإنسان، يقول الشاب الظريف في أبيه(1):

نفـــس زكـــت وزكـــت بهـــا أنوارهـــا	فـــي صـــورة نســـخت صـــفاء صـــفاتي
بهـــرت وقـــد طهـــرت ســـنًا وتقدســـت	شـــرفًا عـــن التشـــبيه والشـــبهات

القصيدة كلها ترسم صورة للوالد المحب الشفيق العطوف المؤمن الموحِّد...، وصفات كثيرة تدل على محبة زائدة واحترام كبير.

ويقول العفيف التلمساني في رثاء ابنه(2):

أيـــن البنـــان التـــي إذا كتبـــت	وعـــاين النـــاس خطهـــا ســـجدوا
أيـــن الثنايـــا التـــي إذا ابتســـمت ج	أو نطقـــت لاح لؤلـــؤ نَضِـــدُ
مـــا فقـــدتك الأقـــرانُ يـــا ولـــدي	وإنمـــا شـــمس أفقهـــم فقـــدوا

أما الزعم بأن عفيف الدين التلمساني من الشيعة الإمامية -كما يزعم شاكرها ذي شكر- فهو قول لا دليل عليه في ترجمة الرجلين، وقد علق هو نفسه على أبيات الشاب الظريف التي أورد فيها بعض المصطلحات الشيعية يقول: "ومع أن هذه الأبيات لا يصح الركون إليها في تعيين مذهبه فهو من الناحية التاريخية شيعي إمامي بلا أدنى شك لأنه ابن الشيخ عفيف الدين"(3).

ولا أعرف حجة للمحقق يستند عليها في إثبات هذا الرأي إذا كان هو نفسه يقول: "والعجب من بعض الناس إذا رأوا رجلًا مجاهرًا في التشيع يرمونه بالنصيرية حتى لو كان مثل عفيف الدين العلامة التقي النقي العلم الرباني"(4).

ومما يؤكد أن المحقق لا حجة له قوله: "والغريب في الأمر أن صاحبي الذريعة وأعيان الشيعة -الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة تخص أعيان الشيعة ومؤلفاتهم وشعرائهم إلا أحصوها- لم يذكروا الشاب الظريف بكلمة واحدة"(5).

---

(1) ينظر: الديوان، ص69.

(2) ينظر: الوافي بالوفيات، 3/135.

(3) مقدمة ديوان الشاب الظريف، ص15.

(4) مقدمة ديوان الشاب الظريف، ص15.

(5) مقدمة ديوان الشاب الظريف، ص15.

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

وقد أكد هذا القول شيخه أبا حيان الذي كان له تأثير كبير على ثقافته ومعارفه أن الشاب الظريف لا يتبع مذهب أبيه في التصوف ولا يمكن أن يتشيع لتشيع أبيه، وفي الوقت ذاته وصفت مصادر ترجمة الشاب الظريف بأنه شافعي المذهب.

- ومن شيوخه الإمام النووي[1]: قال أبو حيان: رأيت خط الشيخ محيي الدين النووي -رحمه الله تعالى- على كتاب المنهاج له، وقد قرأه عفيف الدين وولده شمس الدين محمد المذكور وقد أجازهما روايته عنه سنة سبعين وست مئة[2].
- ابن النحاس[3] قال من قصيدته يمدحه بها[4]:

وأنـــت أتقنـــت بالإحســـان تربيتـــي ج وأنـــت أحســـنت بالإتقـــان تـــأديبي

وأنـــت أكســـبتني رأيًـــا غنيـــت بـــه عـــن أن أكابـــد مـــن هـــول التجاريـــب

- ابن الأثير[5] بدليل قوله من قصيدة يمدحه بها[6]:

متنصـــلًا مـــن ذا الزمـــان وجـــوره متوصـــلًا لابـــن الأثيـــر وعدلـــه

حتـــى نفـــى ظلـــم الضـــلال بشمســـه عنـــي وحـــر الحادثـــات بظلـــه

---

[1] أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري محيي الدين الحزامي الحوراني، 631-676هـ/1233-1277م، (علامة في الفقه والحديث له كثير من المؤلفات طبع منها 22 كتابًا أهمها الأحاديث القدسية، والمنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، وما تمس إليه حاجة القارئ لصحيح الإمام البخاري، والمجموع شرح المهذب، وبستان العارفين، وتهذيب الأسماء واللغات، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، والسيرة النبوية...)، ينظر: مسالك الأبصار 5/680، الأعلام بوفيات الأعلام 2/459، العبر 3/334، الوافي بالوفيات 28/158، فوات الوفيات 4/264، عصر السلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، د. محمود رزق، المطبوعات العربية 284/، الأعلام 8/149، معجم المؤلفين 13/202.

[2] الوافي بالوفيات، 3/130.

[3] أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن إبراهيم محيي الدين ابن النحاس الأسدي الحلبي، 614-685هـ/1217-1286م، (فقيه محدث موصوف بالذكاء وحسن المنظر درس بالريحانية والظاهرية، وولي نظر الدواوين ونظر الأوقاف والجامع وكان معمارًا مهندسًا موصوفًا بحسن الإنصاف في البحث...، ينظر الوافي بالوفيات 5/224، الجواهر المضية في طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء أبي محمد عبد القادر القرشي) ت 775هـ/1373م (دائرة المعارف النظامية حيدر أبان الركن، سنة 1332هـ، 2/144، الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي عبد القادر بن محمد) 927هـ/1521م، تحقيق جعفر الحسني، منشورات المجمع العلمي العربي، مطبعة الترقي بدمشق، سنة 1948م، 1/524، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، للطباخ محمد راغب بن محمود بن هاشم الحلبي) ت1951م (صححه محمد كمال، ط2/ دار العلم العربي حلب، سنة 1988م، 4/525).

[4] ينظر: ديوان الشاب الظريف، ص56.

[5] شهر بهذا اللقب اثنان في وقت الشاب الظريف رجل وابنه وهما أحمد بن سعيد وأبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن سعيد- تاج الدين بن الأثير الحلبي) ت691/1252م (باشر الإنشاد في الأيام الظاهرية ثم ترقى فأصبح الموقع وكاتب السر وكان بليغًا فصيحًا...)، ينظر: الوافي بالوفيات 6/392، المنهل الصافي 1/282، النجوم الزاهرة 8/34، إعلام النبلاء 4/516.

[6] ينظر: ديوان الشاب الظريف، ص199.

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

الشاعر ومعاصروه

كان الشاب الظريف على صلة وثيقة برجالات عصره، فهو بحكم عمله يلتقي كبار الأمراء وموظفي الديوان، لذلك نجد في ديوانه مدحًا لعدد من المشاهير، منهم:

- ابن عبد الظاهر[1].
- الأمير ناصر الدين الأيوبي[2].
- ابن الافتخار[3].
- قاضي القضاة ابن زكي[4].

وفي الديوان أسماء أخرى لأعلام لم أهتد إلى معرفة أصحابها مثل: الفخر العراقي، وابن مصعب، وقد نجد قصائد في المدح أو العتاب دون أن يذكر اسم المقصود بها.

أما أقوال العلماء فيه: فما قاله ابن فضل الله العمري[5] في الشاب الظريف يطاد أن يكون قصيدة شعرية تناقلها الرواد من بعده فمما قاله فيه: "نسيم سرى ونعيم جرى وطيف لا بل أخف موقعًا في الكرى لم يأت إلى بما خف على القلوب وبرئ من العيوب، ورق شعره فكاد يشرب ودق فلا عزو للقصب أن يرقص وللحمام أن يطرب، ولزم طريقة دخل بها بلا استئذان وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان وجاء بكل لطيف، وأجاد التورية والكل معها لفيف، وبرز على أقرانه ففاق الرفقة وملأ العين بما جاء به من الرقة وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره، وافتتان فيه وفي ذكره

---

(1) أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان، الجذامي، السعدي، محيي الدين 620–692هـ/1223–1293م، (شيخ أهل الترسل، أديب شاعر مؤرخ من كتاب الإنشاء، طبع له: الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، والدرر النظيم من ترسل عبد الرحيم، الروض الزهراء في سيرة الملك الظاهر)، ينظر: الإعلام بوفيات الأعلام 2/471، العبر 3/378، تذكرة الحفاظ 4/1477، الوافي بالوفيات 17/257، عيون التواريخ 150 تذكرة البنية 1/164، المنهل الصافي 7/98، الدليل الشافي 1/387، عقد الجمان 3/196، تاريخ ابن الفرات، 8/162، موسوعة المطبوعات العربية ص194، الأعلام 4/98، معجم المؤلفين 6/74.

(2) محمد عثمان الأمير ناصر الدين بن الملك المسعود بن الملك المنصور صاحب حماة، كانت له منزلة عالية عند ابن عمه الملك المنصور – صاحب حماة– لا يعرف من سيرته إلا أن ابن عمه بعث به رسولًا إلى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس صاحب مصر والشام في سنة 859هـ/1261م، (فأنزل له بباب اللوق وأكرمه إكرامًا عظيمًا وأجيب بما طاب به قلبه ورجع مكرمًا) ينظر: الوافي بالوفيات 4/85.

(3) محمد بن الافتخار إياز، ناصر الدين الحراني، ت 684هـ/1285م، (والي دمشق بعد أبيه ومشد الأوقاف كان من عقلاء الرجال مع الفضيلة والديانة والمروءة والكلمة النافذة في الدولة، استعفى من الولاية فأعفي ثم أكره على نيابة حمص وبها توفي)، ينظر: شذرات الذهب 5/389.

(4) أبو الفضل يوسف بن يحيى بن محمد بهاء الدين قاضي القضاة ابن الزكي القرشي الدمشقي الشافعي، 640–685هـ/1242–1286م، (برع في العلم بذكائه المفرط وقدرته على المناظرة وحل المعضلات سمع بمصر وتفقه بأبيه وكان آخر من ولي القضاء عن هذا البيت، ودرس في أشهر مدارس دمشق: العزيزية والتقوية والفلكية والعادلية وغيرها، وكان جليلًا نبيلًا بارعًا في الأصول) ينظر: الإعلام بوفيات الأعلام 2/465، العبر 3/360، البداية والنهاية 13/326، شذرات الذهب 5/394.

(5) أبو العباس بن أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المحلي بن دعجان القاضي شهاب الدين القرشي العدوي العمري الدمشقي 700–749هـ/1301–1348م، انظر الوافي بالوفيات 8/252، أعيان العصر 1/417، وفوات الوفيات 1/157.

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

وخاصة أهل دمشق فإنه بين عمائم حياضهما رَبي، وفي كمائم رياضها خبي حتى تدفق نهره وأينع زهره، وكان يرى أنهم جلدته وأبناء بلدته وإن كان قديمه من بلد سوى بلدهم ولولد غير مولودهم.

وقد أدركت جماعته من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر ولا يروون له شعرًا إلا عظموه كالمشاعر ولا ينظرون له بيتًا إلا كالبيت ولا يقدمون عليه سابقًا لو قلت: ولا (امرؤ القيس) لما باليت، ومرت له ولهم بالحمى أوقات لم يبق لهم من زمانهم إلا تذكره ولا من إحسانها إلا ما تشكره وأكثر شعره -لا بل كله- رشيق الألفاظ سهل على الحفاظ لا يخلو من الأمثال العامية وما تحلو به من المذاهب الكلامية فلهذا علق بكل خاطر وولع به كل ذاكر[1].

قال الصفدي: شاعر مجيد ابن شاعر مجيد[2].

وقال ابن تغري بردي: "كان شابًا فاضلًا ظريفًا وشعره في غاية الحسن والجودة"[3].

وقال ابن العماد الحنبلي[4] "كان ظريفًا لعَّابًا ومعشارًا وشعره في غاية الحسن"[5].

وقال أحمد أمين: الشاب الظريف شاعر غزل خفيف الروح أولع بالبديع كأهل زمانه ولكنه استعمله في رقة وعذوبة[6].

وقال حنا الفاخوري: "كان أبوه عفيف الدين التلمساني شاعرًا مجيدًا، فقرض هو أيضًا الشعر الخفيف ونظم الغزل الرقيق وأولع بالبديع فأتى به عذبًا رائقًا"[7].

شعره

نجد أن الشاعر الظريف سار في اختيار أغراضه الشعرية على منوال الشعراء القدماء بعاداتهم وتقاليدهم ومشاعرهم، في الارتباط بالحياة البدوية، والتمسك بالهوية الثقافية للمجتمع.

فنجده في غرض الغزل يركز على وصف الحب وحنينه للحبيب، ويصوره على أنه سر الحياة ومعركة الإنسان مع نظيره، مستخدمًا لغة بسيطة معبرة، غالبًا تحتوي أبياته على استعارات وصور حسية مأخوذة من الطبيعة المحلية إذ يقول[8]:

وتَحقِرُ الفُرْســـــان حتى كـأنَـهُم ... وهُـم بُـهَـم الـهـيـاجِ بَـهـائِـمُ

---

[1] مالك الأبصار من ممالك الأمصار، 16/260.

[2] الوافي بالوفيات 3/130، وعنه ينقل ابن الفرات في تاريخه 8/85.

[3] النجوم الزاهرة، 7/387.

[4] أبو الفلاح، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن عماد العسكري الحنبلي، 1032–1089هـ/1623–1679م، (مؤرخ فقيه عالم بالأدب ولد في صالحية دمشق وأقام في القاهرة ومات حاجًا في مكة، طبع له: شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ينظر: موسوعة المطبوعات العربية ص212، الأعلام 3/290، معجم المؤلفين 5/107.

[5] شذرات الذهب، 5/405.

[6] مقدمة الديوان، ص7، نقلًا عن قصة الأدب في العالم، 2/469.

[7] تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ط12/ منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، سنة 1987م، ص865.

[8] ينظر: ديوان الشاب الظريف، ص115.

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

أما الأغراض الشعرية الأخرى فقليلة في شعره، كالرثاء، والهجاء، أما الألفاظ فهو يتخير أفصحها وأقربها إلى البداوة وتقاليد التراث، كالقافلة والسهام وغيرهما، يقول(1):

مليح كأنَ الحُسْــن أصْــبح حاديًا   يســوق إليه كلَّ صـــبٍّ يشُــوقَه

تحمَل مِنْـه الخِصْــر رِدْفًا يقلـهُ   وحمل من الصـــبِّ ما لا يُطِيقهُ

وحُـكْـمٌ فـيـه طـرَفـهٌ وقـوامُـه   فرَاشَــقـهُ يُؤدي بِـه ورَشِــيقـهُ

ولما كانت الكلمات المختارة سبيلًا يتخذه الظريف للتسلية عن همومه ومشاكله، فهي من جانب آخر جسرٌ فنيٌّ ينتقل من خلاله إلى الأغراض المختلفة، وهذا ما نجده في قصائد القدامى -الوحدة الموضوعية- ومن ثم تنوع الأغراض في القصيدة الواحدة التي تحمل أحاسيس متنوعة، فرحًا وحزنًا وفخرًا ورجاءْ، فلابد أن نعرف مقدار هذه الأغراض في شعر الظريف والألفاظ المستعملة فيها، فنجده يعبر عن حبه وشوقه بكلمات مثل البكاء، والصدود، والشكوى، واللهب، وتفرده في العشق، ويكرر كثيرًا في شعره تشبيه الحبيبة بالقمر، وعقد مقارنة بينها وبين القمر الطبيعي، ويذكر أن القمر عندما يكون في تمامه لا يحجب جمال المحبوبة، فهي أبهى منه وأجمل، يقول(2):

وبِـمُـهـجـتـي الـقَـمَـرُ الـذِي   بِـتَـمـامِـهِ لِـتَـمَـامِـهِ لاَ يُـحْـجَـبُ

أما الخصائص الفنية للأغراض الشعرية في شعره فتتميز بالبساطة في اللغة، ويسهل فهمها ومرتبطة بالواقع المحلي، أما من ناحية الموسيقى غالبًا تتسم بالجرس بالموسيقي الشعبي والصور الحسية والتشبيهات يستهلها من البيئة الطبيعية والحياة الاجتماعية. يمكن القول إن شعره يعكس الأحداث الاجتماعية والسياسية والثقافية في عصره.

ووفاته

توفي الشاعر شابًّا -رحمه الله- بدمشق في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر رجب سنة 688ه، الموافق الثالث عشر من شهر أغسطس سنة 1289م، ودفن في مقابر الصوفية بدمشق(3).

اتفقت أكثر أهل التراجم على أن وفاته كانت في رجب وفي السنة المذكورة إلا أن الذهبي -وعنه ينقل ابن عماد- ذكر أنه توفي وله ثلاثون سنة(4)، والرواية الوحيدة المخالفة لإجماع المؤرخين هي رواية محمد بن أحمد بن إياس) ت نحو 930ه/1524م (فقد زعم أن الشاب الظريف ولد في سنة 662ه وتوفي سنة 715ه وله 53 سنة(5)، وهي رواية ظاهرة الخطأ فلا يقال لمن بلغ هذا السن (شابًّا).

(1) ينظر: ديوان الشاب الظريف، ص164.

(2) ينظر: ديوان الشاب الظريف، ص42.

(3) ينظر: المقفى الكبير، 5/694.

(4) ينظر: العبر 3/367، وشذرات الذهب 5/405.

(5) ينظر: بدائل الزهور 1/1/446، وذكر الزركلي في الأعلام، 6/150، أن رواية علاء الدين، علي بن عبد الله البهائي الغزولي، ت815ه/1412م، في مطالع البدور في منازل السرور 1/28، مولد الشاب الظريف في سنة 662ه، ووفاته سنة 687ه.

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

الخاتمة

بعد استعراض حياة الشاب الظريف ومكانته الأدبية في عصره، يتضح لنا أن هذا الشاعر لم يكن مجرد كاتب غزل بل كان تجسيدًا حقيقيًّا لروح عصره إذ يعكس في شعره ملامح المجتمع والسياسة والثقافة التي أحاطت به، وبواسطة شعره استطاع أن ينقل مشاعره بأسلوب رقيق، فكان أدبه مزيجًا من الطرافة والظرف مما جعله يحظى بشعبية واسعة بين معاصريه وفي الأزمنة اللاحقة.

تناول البحث جانبًا من حياته ونشأته وتأثير بيئته العلمية والثقافية على تكوينه الأدبي، وأظهرت هذه الدراسة مدى تأثير الظروف الاجتماعية والسياسية في تشكيل شخصيته الأدبية وكيف تمكن من صياغة شعره بطريقة تجمع بين السلاسة والجمال الفني.

فمن الناحية السياسية كان العصر عصر جهاد متصل ضد الغزاة المعتدين الصليبيين القادمين من الغرب، والمغول القادمين من الشرق وكان شاغل الناس هو حشد الجنود وتوفير السلاح وآلات الحرب ووضع الخطط لحروب دائمة تتسم بالعنف والخراب والقتل.

وكان شعر الشاب الظريف سجلًا فنيًّا وأدبيًّا لهاتين الناحيتين: الاجتماعية والسياسية، فأكثر شعره في الحب والغزل ويصور فيه هذه العاطفة النبيلة في صورة المعارك المعامع، فكثيرًا ما يشبه الشاعر اللحظ أو النظر بالعدو المغير والأسد المفترس والفارس المقاتل، تتحقق في شعره جميع المعايير التي عرفها القدماء باسم عمود الشعر وعرفها النقاد المحدثون باسم الصورة والإيقاع، ونجد في أدبه شعرًا ونثرًا التزامًا كاملًا بما شاع في عصره من وسائل التعبير الفني والإيقاعي، فيكثر فيه التجنيس والطباق ورد العجز، كما كان شعره قطعة من الموسيقا العذبة رشيق الألفاظ أجمع معاصروه على تقديمه.

وأرجو أن يكون هذا البحث خطوة نحو إعادة قراءة إنتاجه الشعري وتحليله في سياق بيئته الثقافية والاجتماعية مما يساهم في إلقاء الضوء على دوره الأدبي في العصر المملوكي، ويفتح المجال أمام المزيد من الدراسات حول أعماله وإبداعه الفريد.

المراجع

1. ديوان الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني، (ت 688هـ/1289م)، تحقيق شاكر هادي شكر، ط/1، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، سنة 1985م.
2. ابن بناته المصري، للدكتور عمر موسى باشا، ط2/ دار المعارف، القاهرة، سنة 1972م، ص42.
3. البداية والنهاية، 14/321.
4. الديوان، ص7، ص67-69، ص131.
5. الصفدي وآثاره في النقد والأدب، د. محمد عبد المجيد لاشين، ط1/ دار الآفاق العربية، القاهرة سنة 2005م، ص23.
6. العبر 3/367.
7. المقفى الكبير، 5/694.
8. النجوم الزاهرة، 7/387.
9. الوافي بالوفيات، 3/130، 3/135.
10. تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ط12/ منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، سنة 1987م، ص865.
11. تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، د. أحمد مختار العبادي، ود. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1981م، ص320.
12. ديوان الشاب الظريف، ص56، ص199.
13. شذرات الذهب، 5/405.

ISSN 3105-1375 – Print ...... ISSN 3105-1383 – Online

14. صبح الأعشى، 1/104.
15. مالك الأبصار من ممالك الأمصار، 16/260.
16. مستفاد الرحلة والاغتراب، ص20.
17. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1972م، ص270.
18. من تاريخ الأدب العربي، د. طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1971م، 1/39.